المبحث الخامس
تربية المرأة المسلمة في عصور الازدهار

عصور الازدهار هي الفترة التي كان يسود الفكر الإسلامي فيها الاجتهاد، حيث كان هناك انفتاح على ما لدى الآخرين وعلى ما يجد من قضايا ومشكلات ليس لها حلول مباشرة في الكتاب والسنة كما كان الحال في عهد الرسول ﷺ. ومن ثم فقد كان لابد من إعمال العقل من أجل تلبية الحاجات ومواجهة التحديات (الكيلاني، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص ٧٣).

وقد وجهت الأصول السياسية والاجتماعية تربية المرأة فيما بعد صدر الإسلام، حيث لم تخضع تربيتها لنظام ثابت، وإنما تنوعت وخضعت لظروف مختلفة.

فقد كان للحالة السياسية والاجتماعية أثر كبير على تربية المرأة خاصة بعد أن عمد الأمراء إلى اتخاذ أعوان من العجم إلى جانب أعوانهم من العرب؛ مما أدى إلى حدوث نزاع بين الفريقين. (بيلو، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٧-١٨). وقد انهزم العرب في مجال السياسة والإدارة، ولكنهم انتصروا في مجال اللغة والدين، حيث سادت لغة العرب وتراجع غيرها.

لكن انتصار الموالي في مجال الإدارة والسياسة؛ قد كان له أثره البعيد في المجتمع؛ حيث شاع فيه غير قليل من الشر بسبب استقدام الخدم والجواري، إلى جانب عادات وتقاليد الفرس، مما أدى إلى شيوع الترف واللهو والمجون والزندقة بين المترفين ومن حولهم من الأتباع من فرس وغيرهم (بيلو، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٨٤).

وقد تأثر بعض العامة من الناس بما كان عليه علية القوم، أما الأغلبية؛ فقد ظلت بعيدة عن اللهو والمجون، ممثلة مصداق الحديث الشريف ".. خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم يأتي من بعدهم قوم يتسمنون، ويحبون السمن، يعطون الشهادة قبل أن يسألوها"[1] (بيلو، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٣٨٤).

وسوف نفصل الحديث عن تربية المرأة المسلمة في عصور الازدهار وذلك من خلال

(١) الترمذي، د.ت، ج٣، ص٣٣٩.

الحديث عما يلي:

١- تطور الحركة العلمية في عصور الازدهار.

٢- تعليم المرأة المسلمة في عصور الازدهار.

٣- المبادئ التي وجهت تعليم مسلمة عصور الازدهار.

أولا: تطور الحركة العلمية في عصور الازدهار:

كان تعليم الدين الإسلامي في عهد الرسول ﷺ شاملا للجميع صبيانا ورجالا ونساء، حيث نجد ابن حزم يذكر أنه لما توفي ﷺ؛ كانت جميع قرى شبه الجزيرة العربية ومدنها قد دخلها الإسلام، وقرئ فيها القرآن في الصلوات، وتعلمه الصبيان والنساء أيضا (الأهواني، د.ت، ص ٧٤).

واستمر الحال على ذلك في عهد الخلفاء الراشدين، الذين ما أن انتهى عهدهم؛ حتى ظهرت الفتن السياسية التي أثرت على جميع المجالات.

ونجد ابن تيمية قد تحدث عن ذلك حينما أشار إلى أن عامة البدع في العلوم والعبادات إنما وقعت في أواخر خلافة الخلفاء الراشدين، فبذهاب دولتهم ظهر النقص في الأمراء، فكان لابد من ظهوره في أهل العلم والدين أيضا، ومن ثم فقد وجدنا أنه في آخر خلافة علي رضي الله عنه؛ ظهرت بدعتا الخوارج والرافضة لتعلقها بالإمامة والخلافة. ثم ظهرت بعد ذلك الفرق الأخرى مع انقراض جمهور تابعي التابعين. وآخر الدولة الأموية وبداية العباسية ؛ أصبح في الولاة كثير من الأعاجم، وظهر الرأي والكلام والتصوف، وظهر الكذب في الرواية، وكثرت الآراء في الفقه، والتشيع... و" كان في خيار الناس من العلم والصدق والسنة والفقه والعبادة أمر عظيم " (ابن تيمية، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م ، ج١٠، ص٣٥٤-٣٦٠).

وعلى الرغم من تردي الأحوال السياسية؛ إلا أن الخلفاء والوزراء والأعيان قد شجعوا البارزين في مختلف العلوم، مما أسهم في الارتقاء بالنواحي العملية، حيث تغلغلت الثقافة والمعرفة في جميع أوساط المجتمع، وكانت حركة الترجمة من أهم أسباب ازدهار الحركة الثقافية (الجهيمان، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص ١٣-١٥).

وقد لاقت علوم العربية اهتماما كبيرا، سيما بعد شيوع اللحن، كما ازدهرت العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال، ونشأت بعض العلوم في ظلال الحديث الشريف مثل علم الجرح والتعديل، وكثرت المصنفات في الفقه والحديث والتفسير، ونشأت المذاهب

الأربعة (الجهيمان، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص١٥).

ويذكر الدكتور الكيلاني؛ أن مفهوم التعليم قد ارتبط في عصور الازدهار بطبيعة العصر وظروف المجتمع؛ ولذلك جاءت ميادين المنهاج والأساليب ومراحل التربية بما يناسب تطور المجتمع في كل مرحلة ويلبي احتياجاته (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٦٩، ص ٨٨).

ثانيا: تربية المرأة المسلمة في عصور الازدهار:

كانت أبواب التعليم والثقافة مفتوحة أمام المرأة المسلمة في عصور الازدهار، ويشهد على ذلك ما تحفل به كتب التراجم من أعداد كبيرة من النساء اللاتي برزن في مختلف أنواع العلوم التي وجدت آنذاك.إلا أنه وبصفة عامة؛ فقد كان تعليم النساء أقل انتشارا من تعليم الرجال، ويعلل د.أحمد شلبي ذلك بحاجة طلاب العلم من الرجال إلى الرحيل في طلبه؛ الأمر الذي كان متعذرا على النساء (شلبي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص ٣٢٩-٣٣٠).

ولعل هذا أحد الأسباب التي قللت من انتشار تعليم النساء في عصور الازدهار، إذ أن النظر في أحوال المجتمع الإسلامي بعد عصر صدر الإسلام يرشدنا إلى وجود أسباب أخرى من بينها:

أ- التردي الأخلاقي الذي وصل إليه المجتمع الإسلامي في عصور الازدهار:

فقد تردى بعض أفراد المجتمع الإسلامي من الناحية الخلقية، وتصاعد هذا التردي الأخلاقي تدريجيا بعد وفاة الرسول ﷺ. ولا أدل على ذلك من قول السيدة عائشة رضي الله عنها في ارتياد النساء للمساجد: " لو أن رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعت بني إسرائيل " (مسلم، د.ت، الصلاة / ٣١، ص٣٢٩).

وكما أشرنا سابقا فقد انتشر في المجتمع الإسلامي - خاصة بين علية القوم شيء من اللهو والعبث والمجون، الذي اقترن بما يخل بالدين والآداب والأعراف والتقاليد من أعمال. ويدل على ذلك الغزل المكشوف الذي كان يتداوله المجان، والمتعلق بالأمة؛ الجارية المتبذلة، المدربة على فنون الأدب والشعر والغناء، والإغراء. حيث كانت هذه المرأة هي الأصل الذي يقاس عليه لديهم، وكانت المرأة الحرة لا وجود لها في نظر هؤلاء الشعراء، وإن وجدت فهي فاجر بغي. فالنساء العفيفات قد كن متهمات عند المجان من الشعراء (بيلو ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٥٥ - ٢٥٨).

كما يدل على ذلك ما ذكره أبو الفرج في الأغاني من أن "مطيع بن إياس مر بيحيى بن زياد، وحماد الراوية وهما يتحادثان، فقال لهما: فيم أنتما؟ قالا: في قذف المحصنات! قال: أو في الأرض محصنة تقذفانها؟

فهم - كما يقول صالح بيلو - قد اتهموا جميع النساء في عفتهن، ونظروا إليهن نظرتهم إلى الإماء والجواري، وإن أظهرن عفة فإنما إلى حين ثم تتهاوى (بيلو، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٥٨).

فهذه الأجواء وإن انتشرت بين الخواص من الناس؛ إلا أنها قد أثرت على العوام منهم الذين ربما دفعهم حرصهم على نسائهم إلى منعهن من الاختلاط بالجواري اللاتي مثلن أكثر النساء اللاتي تلقين العلم في الكتاتيب.

ب- انتشار الجواري:

لما بدأت الفتوحات الإسلامية، أدخلت الجواري إلى المجتمع الإسلامي من مختلف البلاد، فكان عددهن من الكثرة بحيث كان بإمكان أي فرد عادي أن يمتلك منهن، خاصة مع كثرة الأسواق التجارية التي كانت تعج بهن وبالنخاسين[1]، حيث كانت المتاجرة بهن صناعة رابحة تدر كسبا باهظا لأصحابها؛ ومنهم إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، وإبراهيم المهدي (العمروسي، د.ت، ص٤٤).

وقد تفنن الناس في ابتداع الوسائل التي تزيد من الربح في تجارة الرقيق؛ ومنها تعليم الغناء للجواري. فكان المغنون هم تجار الجواري والمعلمين لهن. وهكذا؛ ارتفع المستوى العقلي للجواري، وأصبحن طبقة ممتازة، ينظر إليها بإعجاب واحترام، خاصة وقد وجد من بينهن من تعلمت الأدب والشعر. فكن مغنيات مثقفات تتطلع إليهن النفوس (العمروسي، د.ت، ص٤٦-٤٧).

وقد بدأت تجارة الرقيق منذ العصر الأموي، وكان المتوقع أن ينغمس الأمويون في الترف بعد أن انحسرت رهبة الدين في قلوبهم، والتي تمثلت أعظم ما تمثلت في قتل آل بيت النبي وغزو المدينة وهدم الكعبة. إلا أن ذلك لم يحدث بسبب تحذير معاوية لهم باعتبارهم السادة الذين ينبغي أن يحافظوا على وقارهم أمام العامة (عبد الله عفيفي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج٣، ص٥١-٥٧).

(١) **نخاس**: بائع الرقيق. (الزبيدي، د.ت، ج٤، ص٣٥٥).

ثم ازدادت تجارة الرقيق في العصر العباسي، وكانت الجواري ينتمين إلى أجناس مختلفة، ولكثرتهن؛ فقد كان لهن أثر بعيد في قصور الخلافة إلى درجة أن خلفاء بني العباس الستة والثلاثين، كانوا إلا ثلاثة منهم من ولد الجواري (عبد الله عفيفي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ج٣، ص ٤٩).

وقد كان تأثير الجواري سيئا في نشر الخلاعة والمجون، ونجد الجاحظ يعلل ذلك بسبب نشأتهن منذ الولادة وحتى الوفاة في جو يصد عن ذكر الله، حيث يقول ما نصه:

" وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة، وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهي تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث، وصنوف اللعب والأخانيث، وبين الخلعاء والمجان، ومن لا يسمع منه كلمة جد ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة " (الجاحظ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٨٣).

كذلك نشرت الجواري أنواعا من الظرافة قلدهن فيها الناس مثل: حب الأزهار، وتعشقها، وكتابة الأشعار الرقيقة على الملابس. وإلى جانب ذلك فقد كن أنشط من الحرائر في الإنشاد الأدبي، وفي الإيحاء إلى الشعراء؛ بسبب طبيعة النظام الاجتماعي، حيث كان الناس يغارون على الحرائر أكثر من الجواري، ويتشددون في حجاب الحرة. هذا إلى جانب أن علم الجارية كان يقوم أكثر من بدنها. ومن ثم وجد من بين الجواري الأديبات والمثقفات إلى درجة عالية من الثقافة (أحمد أمين، د.ت، ج١، ص٩٥-٩٩).

وقد ذكر ابن عبد ربه بعض الأقوال التي تشير إلى المكانة الرفيعة التي وضعت فيها الجواري مقارنة بالحرائر لدى البعض من الناس في ذلك الوقت ومنها:

- "... وعجبا لمن عرف الإماء كيف يقدم على الحرائر."

- الأمة تشترى بالعين وترد بالعيب، والحرة غل في عنق من صارت إليه. (ابن عبد ربه، د.ت، ص٩٦ - ٩٧).

ويؤكد ذلك الجاحظ في حديثه عن وضع المرأة المطلقة في عصره، حيث يشير إلى أن الناس في عصر الصحابة رضوان الله عليهم؛ كانوا لا يرون باسا في أن تنتقل المرأة إلى عدة أزواج بعد طلاقها، في حين أصبحوا في عصره يكرهون الزواج من المطلقة، ويلزمون من يخطبها العار، ويلحقون به اللوم، ويعيرونه بزواجه منها، في حين يتحظون بالإماء وقد

تداولها الآلاف (الجاحظ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٧٣-٧٤).

ج - التقليل من شأن المرأة:

بديء في التقليل من شأن المرأة مع بداية العصر العباسي، حيث أسهم الخلفاء العباسيون بدور كبير في الحط من شأن المرأة؛ وذلك بما استحدثوه من بدع، كان من أبرزها أن يحلف الرجل بطلاق زوجته على أن يبقى على بيعتهم [١]. وكان المقسمون هم ذوي الرأي والجاه من الساسة والقادة، الذين كان من بينهم من هو منصرف بقلبه عنهم إلى سواهم. فوقعوا في حيرة من أمرهم؛ هل تطلق نساؤهم أم لا؟ وهنا جهر صوت مالك ابن أنس: " بأن طلاق المكره باطل ويمينه لاغية "؛ فراع أبو جعفر المنصور موقفه وأمر بضربه بالسياط فضرب[٢]. (الذهبي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤ م، ج٨، ص٨٠).

ونجد الجاحظ يؤكد ما سار عليه بعض الناس في عصره من ازدراء النساء واحتقارهن، وبخس حقوقهن إلى درجة جعلوا معها حب الرجل لأمه وزوجته وولده " دليلا على الضعف وبابا من الخور " (الجاحظ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٩٩-١٠٠).

ونلاحظ هنا البون الشاسع بين ما كان عليه الناس من تبجيل الأم في عهد معاوية الذي كان يفخر بأنه ابن هند، وبين ما صار عليه بعضهم بعد فترة ليست ببعيدة العهد عنه (عفيفي، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م، ج١، ص١٦٤).

على الرغم من أن الجاحظ قد نادى في بعض الأحيان بإنصاف النساء ورد حقوقهن المسلوبة، حيث يقول في ذلك ما نصه:

" ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر، فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة، وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات، وكذلك الأخوة والأخوات، والبنون والبنات، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم " (الجاحظ ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ص١٠١).

إلا أننا نجده في أحيان أخرى يجارى المجتمع في التقليل من شأن المرأة من حيث أراد إنصافها، بإشارته إلى أن حق الأب " أعظم "؛ في حين أن الرسول ﷺ حين سأله رجل:

---

(١) حدث هذا في عهد أبي جعفر المنصور ١٣٦ - ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ - ٧٧٥ م.

(٢) ذكر ابن خلكان أن الذي ضربه هو ابن عم أبي جعفر المنصور. (ابن خلكان، ج٤، ص١٣٧)

" من أحـق الناس بحسن صحابتي؟ "، جعل حق الأم مقدما على حق الأب ثلاث مرات (البخاري، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج١، الأدب/ ٢، ص٦٩).

وعلى الرغم من الظروف السابقة المشار إليها، والتي أسهمت في التقليل من فرص النساء في نيل العلم، إلا أننا نجد في ثنايا الكتب أسماء لكثيرات من النساء ممن نبغن في مختلف أنواع العلوم . أما السبب في نبوغهن فيرجع إلى ما توافر لهن من بيئات علمية خاصة؛ كأن يكون الأب أو أحد الأقارب من العلماء، أو أن تنتمي المرأة إلى علية القوم ممن كانوا يهتمون بتعليم نسائهم فيحضرون إليهن من يعلمهن في دورهن أو قصورهن.

ثالثا: المبادئ التي وجهت تربية مسلمة عصور الازدهار:

من أبرز المبادئ التي وجهت تربية مسلمة عصور الازدهار ما يلي:

١) عدم تحديد سن لبدء التعليم:

فقد كان الأمر متروكا للآباء في اختيار الوقت المناسب لإرسال أبنائهم وبناتهم إلى الكتاتيب، لكن يبدو أن البعض كان يرسلهم قبل السابعة، حيث نجد العبدري في كتابه "مدخل الشرع الشريف" ينتقد الآباء الذين يرسلون أبناءهم إلى الكتاب قبل سن السابعة؛ لما في ذلك من إرهاق جسمي وعقلي لهم. وقد ذكر أنهم إنما يفعلون ذلك للتخلص من متاعبهم في البيت (الأبراشي، د.ت، ص١٨٧).

٢) إلزامية التعليم:

أجمع العلماء في عصور الازدهار على وجوب نشر التعليم بين جميع الأفراد، (الأهواني، د.ت، ص١٠١)، وممن أشار إلى ذلك القابسي في القرن الرابع الهجري، الذي علل ذلك بأن المؤمنين والمؤمنات مكلفون جميعا بنص القرآن، ولا تتيسر معرفة الدين إلا بنوع من التعليم (الأهواني، د.ت، ص١٠١، ص ١٠٤).

وقد أسفر الإيمان بهذا المبدأ عن إيجاد العديد من **المؤسسات التربوية** التي أسهمت في تربية مسلمة عصور الازدهار.

فهناك **الكتاتيب** التي ظلت منذ إنشائها؛ نظاما حرا يعتمد على استقلال بعض المعلمين بافتتاح مكاتب للتعليم، في حين كانت في بعض البيئات تعان من ذوي اليسار أو

من الأوقاف التي يحبسها أغنياء المسلمين [1] (الأهواني، د.ت، ص١١).

وإلى جانب الكتاتيب؛ كان هناك **المسجد** الذي ظل منذ عهد الرسول ﷺ دارا للعبادة، ومركزا تربويا وثقافيا تعقد فيه حلقات العلماء لدراسة القرآن الكريم، والعلوم المساعدة له من فقه ولغة؛ إلى جانب كونه مكانا للفتوى ومركزا لتصريف شئون الدولة.

وقد أسهم المسجد كثيرا في الارتقاء بفكر المرأة المسلمة، وتوعيتها بأمور دينها، ولم يجرؤ أحد على منعها منه التزاما بتوجيهات المربي الأول؛ رسول الله ﷺ الذي نهى عن منع النساء من ارتياد المساجد.

ويلاحظ أن هذا النهي من قبل الرسول ﷺ لم يلغ بعد حادثة الاعتداء التي وقعت على إحدى المسلمات وهي في طريقها إلى المسجد في عهد الرسول ﷺ.

فقد روى وائل الكندي:" أن امرأة خرجت على عهد رسول الله ﷺ تريد الصلاة، فتلقاها رجل فتجللها[2] فقضى حاجته منها فصاحت فانطلق. ومر عليها رجل فقالت: إن ذاك الرجل فعل بي كذا وكذا، ومرت بعصابة من المهاجرين، فقالت: إن ذاك الرجل فعل بي كذا وكذا. فانطلقوا فأخذوا الرجل الذي ظنت أنه وقع عليها وأتوها فقالت: نعم هو هذا، فأتوا به رسول الله ﷺ فلما أمر به ليرجم قام صاحبها الذي وقع عليها فقال: يا رسول الله أنا صاحبها. فقال لها: "اذهبي فقد غفر الله لك، وقال للرجل قولا حسنا، وقال للرجل الذي وقع عليها ارجموه". وقال: **"لقد تاب توبة لو تابها أهل المدينة لقبل منهم"** (الترمذي، د.ت، ج٤، الحدود/ ٢٢، ص٤٥-٤٦).

فرغم هذه الحادثة؛ إلا أن أمر الرسول ﷺ بالسماح للنساء في ارتياد المساجد، والنهي عن منعهن قد ظل قائما، ومن ثم وجدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم ينه زوجه عاتكة عن ارتياد المسجد طاعة لأمر الرسول ﷺ [1].

---

(١) هناك من المصادر ما يشير إلى أن الكتاتيب قد وجدت قبل الإسلام، وكان مقرها منزل صاحب الكتاب وبعد أن جاء الإسلام وانتشرت المساجد؛ لم يعد المنزل هو المكان الوحيد للكتاب بل أضيفت إليه المساجد والأربطة والتكايا (ابن دهيش، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧ م، ص ٤٥).

(٢) **تجللها**: علاها. (المنجد، ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م، ص٩٥).

(١) جاء في الإصابة أن عاتكة بنت زيد رضي الله عنها كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فكانت تكثر الاختلاف إلى المسجد النبوي. وكان عمر يكره ذلك. فقيل لها في ذلك، فقالت: ما كنت بتاركته إلا أن يمنعني. فكأنه كره أن يمنعها. (ابن حجر، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ج٤، ص٣٥٧).

ووجدنا كذلك عبد الله بن عمر ينهر ابنا له لقوله: لا ندعهن يخرجن فيتخذنه دغلا.

فقد روى مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: " لا تمنعوا النساء من الخروج إلى المساجد بالليل "، فقال ابن لعبد الله بن عمر: لا ندعهن يخرجن فيتخذنه دغلا [1]. قال: فزبره[2] ابن عمر، وقال: أقول: قال رسول الله ﷺ وتقول: لا ندعهن" (مسلم، د.ت، ج١، الصلاة/ ٣٠، ص٣٢٧).

وقد سار المجتمع الإسلامي على ذلك، حيث كان عدد النساء يزداد في ارتياد المساجد، حتى أنهن كن يملأن رحبة المسجد في العصر العباسي، فيضطر الرجال للصلاة خلفهن (محمد الهاشمي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٢٤).

وهناك أيضا **بيوت العلماء** التي أسهمت في تخريج عدد كبير من العالمات من النساء. فقد جاء في سيرة عيسى بن مسكين المتوفى سنه ٢٧٥هـ/ ٨٨٨ م، أنه كان يجلس إلى الطلبة حتى العصر، ثم يدعو ابنته وبنات أخيه؛ فيعلمهن القرآن والعلم (شلبي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٣٣٣).

كما ذكر أن ابن المطرف كانت له جارية أخذت عنه النحو واللغة، ثم فاقته في ذلك خاصة في العروض وسميت بالعروضية. وكانت تحفظ عن ظهر قلب الكامل للمبرد، والأمالي للقالي وتشرحهما. وقد درس على يدها هذين الكتابين إلى جانب علم العروض كثير من العلماء (بغدادي، ١٤١١هـ/ ١٩٩١ م، ص١٢٢).

وكذلك اعتنى أسد بن الفرات بتثقيف ابنته أسماء، حيث كان يسمح لها بالمشاركة بالسؤال والمناظرة في مجالسه العلمية، وقد توفيت حوالي عام ٢٥٠ هـ (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٤٥).

أيضا هناك **المدارس** التي بديء في إنشائها منذ منتصف القرن الخامس الهجري، (عسيري، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م ص ٢٤٠)، حيث يشير ابن جماعة إلى أن من بين مسلمات عصور الازدهار من التحقن بالمدارس الداخلية، فيقول في ذلك ما نصه:

---

(١) فسادا وريبة. (النووي في مسلم، د.ت، ج١، ص٣٢٧).

(٢) نهره. (النووي، في مسلم، د.ت، ج١، ص٣٢٧).

"والأولى ألا يسكن المدرسة وسيم الوجه أو صبي ليس له فيها ولي فطن، وألا يسكنها نساء في أمكنه تمر الرجال على أبوابها، أو لها كوى تشرف على ساحة المدرسة "(ابن جماعة، د.ت، ص٢٢٩).

ونلاحظ في عبارة ابن جماعة التركيز الشديد على أهمية الفصل بين الذكور والإناث من أجل الحفاظ على الأخلاق العامة.

كذلك وجدت **البيمارستانات**، وهي دور علاج المرضى، والتي مثلت أماكن لدراسة الطب والتدريب العملي عليه. وقد كانت منظمة بشكل جيد حيث كان فيها أقسام للرجال، وأخرى للنساء، وكانت مجهزة بالآلات والعدد والمشرفين والخدم. وكان لكل بيمارستان رئيس أطباء يلقي دروسه على طلبة الطب ويأذن لمن أتم دراسته منهم بمنحه إجازة. ولم يكن يسمح له بممارسة الطب قبل امتحان معين (مرسي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٢٢٠-٢٢١).

وهناك **الأربطة** التي أقامتها الصوفية، وجعلت فيها دروسا في الحديث والقراءات لجميع المذاهب، وكان يشترط على من يسكن الأربطة حضور هذه الدروس (زينب فريد، د.ت، ص ٣٧- ٤٠).

ونجد أن كثيرات من النساء قد اعتنقن هذا المذهب منذ نشأته، وأشهرهن رابعة العدوية[1] المتوفاة سنة ١٣٥هـ (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٤٣٠).

ومن بين الأربطة التي كانت ببغداد:

- رباط شهدة بنت الأبري العالمة التي توفيت عام ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م.

- رباط زمرد خاتون زوجة المستضيء بالله، المتوفاة عام ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م، وقد شيدته عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م.

- رباط أرجوان الرومية، والدة المقتدي بالله والمتوفاة عام ٥١٢هـ / ١١١٢م. (عسيري، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ٢٣٢-٢٣٣).

(١) قال ابن الجوزي: كانت رابعة فطنة، ومن كلامها الدال على قوة فهمها قولها: أستغفر الله من قلة صدقي من قولي استغفر الله " . (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٤٣١) .

وأخيرا هناك **الدور والقصور** التي كان التعليم فيها يتم على أيدي معلمين خصوصيين ولم يكن متاحا سوى لبنات علية القوم اللاتي كن يلقين عناية خاصة من ذويهن، حيث يحضرون لهن المعلمين، إلى جانب أن حياة الاختلاط التي شاعت تدريجيا بين علية القوم؛ قد مكنت لعدد غير قليل من النساء من النبوغ، نتيجة للفرص التي أتيحت لهن في الاختلاف إلى مجالس الأدب والأندية العلمية التي كانت تعقد في قصور الخلفاء، والتي كان يسمح لهن بالمشاركة فيها (زينب فريد، د. ت، ص ٤٧-٤٩).

ومن أبرز المتعلمات في القصور من نساء عصور الازدهار، زبيدة بنت جعفر زوجة هارون الرشيد، التي عني أبوها بتربيتها، فعلمها القراءة والكتابة، وشجعها على حفظ الأخبار والأشعار، حتى أنها كانت تزين حيطان حجرتها بستائر موشاة بأبيات من الشعر الجميل. وكان بين جواريها مائة جارية يعرفن القراءة والكتابة، وقول الشعر، ويحفظن القرآن الكريم. وقد كان الرشيد يستشيرها في أموره لما كان من رجاحة عقلها. ولها أثر كبير في إنشاء المدارس والمستشفيات والمساجد والمشارب. توفيت عام ٢١٦هـ ببغداد (ابن خلكان، د.ت، ج٢، ص٣١٤ / كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص٢٩).

وهناك أيضا هند بنت المهلب بن أبي صفرة؛ زوج الحجاج بن يوسف الثقفي؛ فأبوها أمير وزوجها أمير أيضا. وقد أتاح لها ذلك أن تأخذ بنصيب وافر من العلم والرواية عن أكابر العلماء، وكانت على دراية بعلم الفقه (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٥، ص٢٥٤).

قال أبو أيوب السجستاني: ما رأيت امرأة أعقل من هند بنت المهلب. ومن أقوالها:

- النساء ما زين بشيء كأدب بـارع تحته لب ظـاهر.

- إذا رأيتم النعم مستدرة؛ فبادروا بالشكر قبل حلول الزوال.

ودخل عليها زياد بن عبد الله القرشي ، فوجدها تغزل، فقال لها: " أتغزلين وأنت امرأة أمير؟ فقالت: سمعت أبي يقول: " قال رسول الله ﷺ: أطولكن طاقة أعظمكن أجرا. وهو يطرد الشيطان؛ ويذهب بحديث النفس " (كحالة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص٢٥٤ - ٢٥٥).

٣) تركيز الاهتمام على الجانب الأخلاقي:

أدى الحرص على الجانب الأخلاقي للنساء إلى استحداث أمور في التربية لم تكن موجودة في عهد الرسول ﷺ مثل تحريم الكتابة والشعر على المرأة، وكذلك الحرص على تعليمها سورا معينة من القرآن الكريم. ويدل على ذلك قول الجاحظ: "لا تعلموا بناتكم الكتابة ولا تروهن الشعر، وعلموهن القرآن، ومن القرآن سورة النور "(الجاحظ عن الأهواني، ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٩ م، ص١٠٥).

كذلك نجد القابسي يقول:"يقبل في تعليمهن الخير الذي يؤمن عليهن منه، وما خيف عليهن منه؛ فصرفه عنهن أفضل لهن وأوجب على متولي أمرهن " (القابسي، د.ت، ص٢٨٩).

٤) الفصل بين الذكور والإناث:

أدت شدة الاهتمام بالناحية الأخلاقية إلى الفصل بين الذكور والإناث في المؤسسات التربويـة، ونجد ابن سحنون في القرن الرابع الهجري يشير إلى ذلك بقوله: " وأكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهم " (ابن سحنون، د.ت، ص٣٦١).

فكأن البعض من معلمي الكتاتيب لم يكن يراعي تطبيق هذا المبدأ، وربما كان ذلك من الأسباب التي حدت من انتشار تعليم النساء في عصور الازدهار.

٥) التدرج في التعليم:

وقد أشار إلى ذلك كل من القابسي وابن سحنون، فالقابسي يرى التدرج بالمتعلم من مقام الإسلام وتربيته حتى يصل إلى مقام الإحسان مرورا بالإيمان. (القابسي، د.ت، ص ٣٦٥-٣٧١)، في حين يرى ابن سحنون التدرج في تعليم سور القرآن الكريم (ابن سحنون، د.ت، ص٣٥٩).

٦) التعلم الذاتي:

جرت عادة المعلمين أن يتركوا لتلاميذهم الفرصة للاعتماد على النفس في القراءة والفهم والبحث، ومن ثم فقد كان كل منهم يسير في دروسه بحسب مستواه من الفهم، وبحسب نوع العلم الذي يميل إليه (الأبراشي، د.ت، ص٣٣).

٧) شمول المنهاج لجميع الحقول المعرفية المتاحة:

وجهت الأصول العقدية والاجتماعية اختيار منهاج تعليم مسلمة عصور الازدهار؛ لذلك نجد أنه تبعا للغاية الدينية من التعليم؛ فقد شكل القرآن الكريم الأساس في المنهاج، ثم درست علوم النحو والعربية بعد أن شاع اللحن في المجتمع زمن معاوية بسبب انتشار الموالي في المجتمع (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٧٠).

وقد تضمن المنهاج أيضا علم الحساب لغرض ديني، وهو معرفة المواريث وقسمة الوصايا، حتى إذا تطور المجتمع، أضيف إلى أسباب تعلمه غرض اجتماعي؛ وهو ضبط الحضارة والعمران (الأهواني، د.ت، ص١٠٨، ١٧١).

ونجد البعض قد عمد بفعل التوجهات الاجتماعية إلى منع المرأة من تعلم الكتابة والشعر. وإلى ذلك يشير القابسي بقوله:

"وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسن ومن مصالحها. فأما الترسل؛ فهو مخوف عليها، وإنما تعلم ما يرجى لها صلاحه ويؤمن عليها من فتنته، وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها" (القابسي، د.ت، ص٢٨٩).

ويعلق القرشي على هذا الرأي للقابسي، وعلى ما ذكرناه سابقا من رأي الجاحظ بقوله:

" وهذا الرأي يفقد الأصالة العلمية، ولا يلتقي مع روح الإسلام وهديه، فإن الإسلام وجه جميع أجهزته وطاقاته لإقصاء الجهل، ومحو الأمية وجعل العلم حقا ذاتيا لكل إنسان ذكرا كان أو أنثى، وألزم الدولة بتهيئة الفرص المتكافئة لتحصيل العلم لكل إنسان بغض النظر عن أصله وقوميته ومكانته الاجتماعية، وأن كل إنسان له الحق في المشاركة الواسعة في جميع ألوان النشاطات العلمية والفكرية " (القرشي، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨ م، ص١٩٣).

ثم اشتمل المنهاج على دراسة الحديث الشريف في زمن عمر بن عبد العزيز وذلك بسبب الحاجة إلى التشريع. حيث نجد أن عمر بن عبد العزيز؛ قد أرسل إلى كبار علماء الحديث يأمرهم بنشره وتعليمه (الكيلاني، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٧م ص٧٠)، وكانت عمرة بنت عبد الرحمن ممن أمر عمر بجمع رواياتها (ابن سعد، د.ت، ج٨، ص٤٨٠).

وفيما بعد؛ ظهرت علوم أخرى كالطب والبلاغة، والنقد، والشعر، والغناء، وذلك بحسب تطور المجتمع.

وقد أقبلت مسلمة عصور الازدهار على هذه العلوم تنهل منها بحسب الفرص التي أتيحت أمامها؛ فكان من بين النابغات في هذه الفترة:

- **عائشة بنت طلحة** رضي الله عنها: التي نشأت في أحضان بيت النبوة برعاية أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فكانت على درجة عالية من العلم بالحديث وأخبار العرب وأشعارها وأيامها، إلى جانب علمها بالفلك (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٢، ص١٥٤).

- **عمرة بنت عبد الرحمن** رضي الله عنها: تلميذة عائشة رضي الله عنها التي كانت على علم كبير بالفقه. وقد تلقى العلم على يدها الزهري ويحيى بن معين وغيرهم. (ابن سعد، د.ت، ج٨، ص ٤٨٠)

قال ابن حبان، كانت من أعلم الناس بحديث عائشة رضي الله عنها (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٣، ص٣٥٦).

وقد روي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن محمد بن حزم: " أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنة ماضية، أو حديث عمرة فاكتبه. فإني خشيت دروس العلم وذهاب أهله " (ابن سعد، د.ت، ج٨، ص٤٨٠).

- **نفيسة بنت حسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب**- ولدت بمكة سنة ١٤٥هـ/ ٧٦٢ م، ونشأت بالمدينة وحفظت القرآن الكريم وتفسيره. ويروى أن الإمام الشافعي لما دخل مصر حضر إليها وسمع عليها الحديث (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج٥، ص١٨٧).

- **أخت الحفيد بن زهر**: وقد كانت عالمة بصناعة الطب والمداواة، وكانت تدخل على نساء المنصور أبي يوسف، ولها خبرة جيدة بمداواة النساء" (كحالة، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ج١، ص٢٧٨).

ونجد جوستاف لوبون في "حضارة العرب" يشيد بالمستوى العلمي الذي وصلت إليه مسلمة عصور الازدهار حيث يقول:

" ومن الأدلة على أهمية النساء أيام نضارة العرب؛ كثرة من اشتهر منهن بمعارفهن العلمية والأدبية. فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في الشرق ، والعصر الأموي في إسبانية "(لوبون، د. ت، ص ٤٠٣-٤٠٤).